الفصل الثالث

ابن هشام، وماذا فعل بنص ابن إسحاق ؟

أواصل هنا خبر ابن هشام الذى بدأته فى مقالى الماضى ، ثم أناقشه بعد ذلك « فقال : مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلىَّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم ،فقال رسول الله ﷺ : اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتنى به ، قال : فذهبت به إلى رحلى ، فبات عندى ،فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال بأبى أنت وأمى ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد! قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً ! فقال العباس : ويحك ! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك ، قال : فشهد شهادة الحق فأسلم ، فقال العباس : يارسول

الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً !. قال : نعم ! من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ : يا عباس ، احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل (خطم الجبل : شىء يخرج منه يضيق به الطريق) حتى تمر به جنود الله فيراها . قال : فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادى حيث أمرنى رسول الله ﷺ أن أحبسه .

قال : ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس ، من هذه ؟فأقول : سليم . فيقول : مالى ولسُلَيْم ! ثم تمر القبيلة فيقول : يا عباس ، من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالى ولمزينة ! حتى نفدت القبائل ، ما تمر قبيلة إلا يسألنى عنها ، فإذا أخبرته قال : مالى ولبنى فلان ، حتى مر رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء . قال ابن هشام : وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها .. وقال حسان بن ثابت الأنصارى .

لما رأى بدراً تسيل جلاهُه بكتيبة خضراء من بلخزرج

قال ابن إسحاق : فيها (أى فى كتيبة الرسول ﷺ المهاجرون والأنصار - رضى الله عنهم - لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد) قال : سبحان الله يا عباس ! من هؤلاء ؟ قال : قلت: هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار ، فقال : ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن

أخيك الغداة عظيماً ، قال : قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال: فنعم إذن .

قال : قلت : النجاء إلى قومك (أى السرعة إلى قومك) حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فقامت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت الوسيم الأحمر (أى الرجل السمين الأحمر الوجه) قُبح من طليعة قوم ، قال : ويلكم ! لا تغرنكم هذه عن أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله ، وما تغنى عنك دارك . قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد)[1] .

وإذا نحن تمعنَّا فى هذا الخبر كله وجدنا أنه لا يستقيم ، وتبين لنا أن الهدف منه هو الارتفاع بمكانة العباس وتصويره على أنه كان من خيرة المسلمين فى أيام الرسول ﷺ ، وهذا غير صحيح ، فكلنا نعلم أن العباس ظل على دينه المشرك حتى فتح مكة ، وليس لدينا برهان واحد على صحة ما يقال من أنه أسلم فى مكة سراً ، وظل فيها يبلغ الرسول بأخبار قريش ، والخبر هنا يقول : إن العباس خرج يستقبل الرسول عند دخوله مكة ،

---

(١) هذه نهاية الكلام الذي نقله المؤلف من كلام ابن هشام المبدوء فى س٨ ص٢٨ .

ويفهم منه أن العباس كان يعلم عن المسلمين كل شيء ، كأنه كان واحداً منهم من زمن طويل ، وهو يتحدث إلى الرسول حديث المقرب منه العارف بكل شئونه ، حتى إن الرسول يأمره بأن يقف بأبى سفيان عند مضيق فى الجبل حتى إذا مرت فرق جيش المسلمين قام بتعريفه بها ، والخبر يرينا أنه كان بالفعل يعرفها ، فمن أين - إذن - كان قد انضم إلى المسلمين عند دخولهم مكة ، وفى نفس الوقت الذى انضم أبو سفيان إليهم فيه ؟ .

والخبر يصوره على أنه هو الذى أنقذ أبا سفيان من الموت على يد عمر أو أى رجل آخر من المسلمين . هذا كله غير صحيح، بل الصحيح الذى نفهمه من الروايات أن أبا سفيان هو صاحب الفضل الأكبر فى إنقاذ قريش ، فهو عندما ذهب إلى المدينة أجار لنفسه بين الناس ، والرسول ﷺ أقر هذا الجوار ، وحيث إنه كان ممثل مكة فإنه أصبح من المفهوم أن مكة أصبحت مدينة مفتوحة ، وهذا هو السبب فى سلامتها ، فقد أمر الرسول رجاله أن يدخلوا مكة دخول سلام ، فلم يحدث قتال إلا فى الجنوب حيث دخل خالد بن الوليد ؛ لأن خزاعة كانت موتورة ، فهاجمت قريشاً وقُتل ناسٌ ، ولكن رسول الله أوقف القتال ، وأقر الناس على السلام مع أهل مكة ، بل شاء كرمه إلا أن يعبر عن تقديره لأبى سفيان فقال : إن من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، وهو تكريم ظاهرى ؛ لأن من دخل دار نفسه أيضاً كان آمناً . وبلغ من توقف الناس عن السلب والنهب أن أحداً لم يفقد شيئاً

إلا ابنة لأبى بكر ، ثم إن الرسول استسلف مالا من بعض كبار الكفار لكى يعطى جنده ، وقد رد هذا المال فيما بعد .

إذن فهذا الخبر كله موضوع ، وقد وضعه وأدخله في السيرة رجال بنى العباس ؛ لكى يعظموا أمر أنفسهم ، ولكى ينالوا من بنى أمية .

وهذه أخبار موضوعة فى السيرة نفسها ، فعلينا أن نكون أيقاظاً ونحن نقرأ حتى لا يدخل علينا هذا الزيف . ولو أننا أعدنا طبع سيرة ابن هشام فإن علينا أن ننبه إلى ذلك فى المقدمة وفى التعليقات حتى يتنبه الناس إلى هذه الزيادات التى تشوه تصورنا للكثير من فقرات السيرة . وجدير بالذكر أن السيرة التى كتبها ابن سعد فى الجزأين الأولين من الطبقات تخلو ـ إلى حد ما ـ من معظم هذا التزييف .

فإذا انتقلنا إلى ما بعد العصر النبوى ، وهو عندنا يمتد إلى نهاية خلافة عمر ؛ لأن عصر أبى بكر وعمر يدخل ضمن العصر النبوى ، فقد سارا على الخط النبوى ، وفى خلافة عثمان تبدأ الفتنة الكبرى ، وهنا نجد أنفسنا أمام صور من التزييف يدهش الإنسان لقبول الماضين لها . خذ مثلاً حكاية عبد الله بن سبأ المسمى أيضاً بابن السوداء ، ويقصها علينا الطبرى وغيره فى تواريخهم مع ظهور زيفها ، يقول الطبرى تحت عنوان : ذكر مسير من سار إلى ذى خشب من أهل مصر وسبب مسير من سار إلى ذى المروة من أهل العراق .. فيما كتب به إلىَّ السرى ،

عن شعيب عن سيف ، عن عطية عن يزيد الفقعسى ، قال : كان عبد الله بن سبأ يهوديّا من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، فأسلم زمان عثمان ثم تنقل فى بلاد المسلمين يريد ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام ، فأخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتمر فيهم .

فقال لهم فيما يقول : لعجب (وعند ابن الأثير والنويرى) العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) ﴾ .

(سورة القصص ٢٨ / ٨٥)

فمحمد أحق بالرجوع من عيسى ، قال : فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها ، ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان هناك ألف نبى ولكل نبى وصى ، وكان عَلِىٌّ وَصِىَّ محمد ، ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، علىٌّ خاتم الأوصياء ، ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصى رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة ! ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصى رسول الله ﷺ فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر

بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر ، فبث دعاته وكاتب من كان فى الأمصار وكاتبوه ، ودعوا فى السر إلى ما كان عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها فى عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه أولئك فى أمصارهم ، وهؤلاء فى أمصارهم ، وهؤلاء فى أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ، ويسرون غير ما يبدون ، فيقول أهل كل مصر : إنّا لفى عافية مما ابتلى به هؤلاء ، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا : إنا لفى عافية مما فيه الناس، وجامعه محمد (بن مسلمة) وطلحة (بن عبيد الله) من هذا المكان ، فقالوا : فأتوا عثمان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أيأتيك عن الناس الذى يأتينا ؟ قال : لا والله ما جاءنى إلا السلامة ، قالوا : فإنا قد أتانا ، وأخبروه بالذى أسقط إليهم ، قال : فأنتم شركائى وشهود المؤمنين . فأشيروا علىّ . قالوا : نشير عليك بأن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم ، فدعا محمد بن مسلمة فأرسله إلى الكوفة ، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة ، وأرسل عمار بن ياسر ، إلى مصر وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام ، وفرق رجالاً سواهم ، فرجعوا جميعاً قبل عمار ، فقالوا : أيها الناس ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولاعوامهم ، وقالوا جميعاً : الأمر أمر

المسلمين إلا أن أمـراءهم يقـسطون بـينهم ويقـومـون عـليـهم، واستـبطأ الناس عماراً حتى ظنـوا أنه اغتيل ، فلم يفاجـئهم إلا كتـاب من عبد الله بن سـعد بن أبى سرح يخـبرهم أن عمـاراً قد استـماله قوم (وفى نسخـة قد استمـال قوماً) فى مصـر ، وقد انقطعـوا إليـه منهـم عبـد الله بـن السـوداء ، وخـالد بن ملجم، وسـودان بن حـمـران ، وكنانـة بن بشـر (الطبـرى ٤ / ٣٣٩ - ٣٤١) .

هذا هو الخبـر الذى يرويه الطبرى وابن الأثيـر والنويرى ، وهو لا يكاد يعقل ؛ فإنه يجعل كل أزمة عصر عثمان وفتنته من عمل رجل واحد هو هذا ابن السوداء الذى يقول إن اسمه عبد الله ابن سبـأ ، وإنه كان يهوديّا من أهل اليـمن ، ودخل الإسلام وبدأ هذه الدسـيسـة الكبرى ، فـهـو الذى اختـرع الرجعـة واختـرع الشيعـية ، وبدأ تحريض الناس على عثـمان ، مع أننا نعرف أن لهذه الفتنة الكبرى أسبـاباً من واقع التاريخ ، ولن يتسع المجال هنا لذكرها ، ولا أظن أن أحداً فى عصـرنا هذا يجرؤ على البحث فيها ؛ لأننا مازلنا فى عصرنا هذا على حساسية بالغة فى كل ما يتـعلق بالصحـابة ، ولكن من الواضح أن فتنـة عثمـان - وهى حادث ضخم لا شك فيه - لها أسبابها التاريخية المنطقية ، ثم إن الطبرى يأتى بعـد ذلك بروايات عن تفصيل أسبـاب ما حدث في عصر عثمان لا تكاد تفهم المراد منها ، وأنت مهما يبلغ فهمك فإنك لا تستطيع أن تصل إلى مقطع الحق فى الموضوع .

وهنا نفهم السر من حكاية ابن السوداء هذه ، فإن الحقيقة فيما يبدو لأى إنسان ذى نظر هى أن عبد الله بن سبأ هذا لم يكن ولا كان قط ، وإنما هى أسطورة وضعت لكى نبعد أى اتهام بالشر إلى أحد من قادة العصر ، وكلهم من الصحابة ، فإن عصر الراشدين هو عصر الصحابة والتابعين ، والثورة على عثمان كانت فى الحقيقة ناتجة عن ظروف تاريخية طبيعية ترجع إلى استحالة تسيير الأمور على النظام الذى سارت عليه أيام عمر ابن الخطاب ، فإن الزمان متغير ، ولكل زمن أحكامه ، فقد كان الإيراد وافراً جداً أيام عمر ؛ نظراً إلى غنى الأقاليم التى فتحت في أيامه . وفى منتصف خلافة عثمان - وبعد نهاوند فى المشرق، وفتح إفريقية فى الغرب وصلنا إلى بلاد لا قصور فيها ولا أموال ولا ذهب ولا فضة ، وإنما وجد العرب أنفسهم فى مواجهة الترك فى المشرق والبربر فى المغرب « ولا مغنم هنا إلا رءوس الماشية والأسرى من الناس » وهذه لا تعطى ما كانت فتوح الشام والعراق ومصر تعطيه من الخيرات الضخمة حتى قيل : « إن دخل الفاتح العربى فى عصر عمر كان يصل إلى ثلاثة آلاف دينار سنوياً فى المتوسط ، والمقاتلون الذين كانوا يخوضون هذه المعارك كانوا من العرب الذين أسلموا فى العام التاسع من الهجرة وما بعده » وهؤلاء كان نصيبهم قليلاً فى الأعطيات بحسب النظام الذى وضعه عمر ، فلما قلت إيرادات الناس من المعارك نظروا فى العطاء فإذا المستحق لكل منهم لا

يكاد يكفى لشىء ، فذهبوا إلى الخليفة يشكون ما يعانون ؛ ولهذا فإننا نجد أنه بعد مناقشات طويلة مع عثمان حول مآخذ يسيرة كانوا يأخذونها عليه ـ نصل إلى بيت القصيد من هذا الكلام الطويل كله ، فيروى الطبرى ما يلى من غير سيف بن عمر ومن إليه فيقول : إن عثمان لقى وفد أهل مصر فى قرية له خارج المدينة فقال لهم : « ما تريدون ؟ قال : فأخذوا ميثاقه ، قال : ما حسبه قال : وكتبوا عليه شرطاً ، قال : وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا ، ولا يفارقوا جماعة ما قام لهم بشرطهم ـ أو كما أخذوا عليه ـ قال : فقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : نريد ألا يأخذ أهل المدينة عطاء ، فإنما هذا المال لمن قاتل عليه ، ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال : فرضوا بذلك وأقبلوا معه إلى المدينة راضين » .

قال الطبرى بعد كلام طويل جداً ص٣٥٥ : « فقام (عثمان) فخطب فقال : إننى ما رأيت والله فى الأرض من هم خير لحوباتى (أى أخطائى) من هذا الوفد الذين قدموا علىَّ » .

وقد قال مرة أخرى : خشيت على هذا الوفد من أهل مصر ، ألا من كان له زرع فليلحق بزرعه ، ومن كان له ضرع فليحتلب، إلا أنه لا مال لكم عندنا . إنما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال : فغضب الناس وقالوا: هذا مكر بنى أمية » (الطبرى ٤ / ٣٥٥) .

ثم تلا ذلك حكاية مشهورة ومتواردة فى الكثير من مراجعنا « هى حكاية وفد مصر الذى كان عائداً إلى بلاده راضياً بالاتفاق الذى تم مع عثمان ، ثم رأى رجلاً يتجه إلى مصر ويعترض الوفد مرة بعد أخرى ، فأمسكوا به وفتشوه فوجدوا معه خطاباً عليه خاتم عثمان إلى والى مصر يأمره فيه بقتل هذا الوفد (الطبرى ٣/٣٥٥) ورأى المؤرخين القدامى هو أن هذا الكتاب من تزوير رجال بنى أمية الذين كانوا مسيطرين على إدارة عثمان . وهى أيضاً مستبعدة ، فإن رجال بنى أمية لم يبلغ بهم الخطل أن يدبروا هذا التدبير الغبى الذى لا معنى له .

ولكن المهم أننا وضعنا أيدينا على سبب الخلاف بين الناس وعثمان ، فإن الناس لا تثور على الدولة لزيادة مساحة مراعى الدولة أو لضرب عبد الله بن مسعود وما أشبه هذه من الأمور ، وإنما تثور لمسائل اقتصادية ، وهذا واضح من كلام الطبرى ، وقد سبق أن أشرنا إليه ، أما حكاية عبد الله بن سبأ ابن السوداء فخرافة لا معنى لها ، ولا ندرى كيف تواتر ذكرها فى معظم مراجعنا ، وقد سبق أن ذكرنا أنها نشأت عن رغبة الناس فى تحاشى أى نقد إلى أى واحد من الصحابة ، وهذا معقول ومشكور ـ أيضاً ـ من المسلمين . وقد سبق أن ذكرنا أيضاً أنه يصعب جدّا دراسة فتنة عثمان لنفس السبب ، فإن عصر الخلفاء الراشدين هو عصر الصحابة وهم أبطال تاريخنا الإسلامى ونجومه .